جيل حائر

ينقصه التوازن والانسجام

بقلم الأديب الأستاذ سيد قطب

ليس بين الفتاة التى تدفع حياتها ثمنا لنظرة تلقيها من النافذة على الطريق العام فى القرية. والفتاة التى تخاصر شابا وترافصه وهما مخمورات على مرأى من الوالد والزوج فى المدينة ... ليس بين هاتين الفتاتين إلا بضعة أميال من المكان ، وبضع ساعات من الزمان ! !

وليست كل فتاة فى القرية تدفع هذا الثمن الباهظ لنظرة عابرة ؛ ولا كل فتاة فى المدينة تترك لها هـذه الحرية العاثرة ، ولكن هذين النوعين من الفتيات موجودان فى مصر اليوم يعيش كل منهما على مقربة من الآخر، فلا تفصل بينهما أجيال كثيرة — كما توجب الطبيعة — ولا آفاق بعيدة — كما يحتم المعقول — ووجودهما فى جيل واحد دليل لا يخطئ على أنه "جيل حائر" بين الأجيال .

ومصر شقية بالأولى كما هى شقية بالثانية ، وكلتاهما تجذب هذا الجيل جذبا لا هوادة فيه ولا راحة، حتى ليكاد يتمزق بينهما ، بل هو يتمزق فعلا كل يوم وتتقطع أوصاله كل لحظة ونحس نحن هذا التقطع وذلك التمزق فى المجتمع المصرى الحائر بين الشرق والغرب ، وبين القديم والجديد ، وينشأ من هذا كله اختلال فى هذا المجتمع مرهوب الأثر ، وخير العاقبة أشبه شىء بتحطم الزجاجة حين تسرى فيها الحرارة بدرجات متفاوتة فتفقد التماسك والاتساق.

هذه واحدة ...

وليس بين البيت الذى تدار مطابخه وحماماته ومكاويه وسائر مرافقه بالكهرباء ، ويتلقى سكانه "مودات" أزيائهم من أوروبا وأمريكا ، وتدور أحاديثهم بلغة أجنبية لا تختلها اللغة القومية إلا تطرفا أو تنازلا ؛ وبين البيت الساذج المبنى من القصب والطين والصفيح القديم والأوانى المحطمة ، والذى لا تزيد محتوياته على عدد من القدور وشىء من الأسمال وزهيد المتاع . . . ثم بين الحى الذى يقع فيه البيت الأول والمباءة التى يقع فيها الثانى. ليس بين هذين الحيين وذانك البيتين إلا بضعة أمتار من المكان وبضع دقائق من الزمان ، تضمهما مدينة واحدة أو قسم واحد من مدينة ، فالمسافة بينهما أضيق من المسافة بين فتاة القرية وفتاة المدينة اللتين تجتمعان فى حدود جيل واحد من الزمان !

والمسافة بين المدينة والقرية قد لا تعدو أميالا محدودة وساعات معدودة، ولكن فوارق المظهر والمنظر ووسائل الحياة وأنواع التفكير هى المسافة بين أمريكا ومصر ، لا بل هى المسافة بين عوالم الانسان وعوالم الحيوان !

وهذه أخرى ...

والدستور المصرى المستق من أحدث دساتير العالم ، والذى لم يقنع بالدستور البريطانى ولا بالدستور الفرنسى فتطلع إلى الدساتير الأحدث عهدا واقتبس من الدستور البلجيكى وكذلك نظام الانتخاب ذى الدرجة الواحدة والحقوق البرلمانية الواسعة ، كل أولئك كان يعيش إلى ما قبل ثلاث سنوات فقط مع " قانون السخرة " وكل أولئك لا يزال يعيش مع " نظام العمد " القديم الذى يضع العمدة فى مركز حاكم الاقطاعية ، ومع القانون المالى الذى عاصر " لجنة التصفية " ... وأخيرا مع الأمية التى تبلغ نسبتها ثمانين فى المائة على أقل تقدير .

وهذه ثالثة ...

والجامعة المصرية ، ذات الأبنية الفخمة والأبهاء الرائعة ، وذات الاستقلال الجامعى والحرية الفكرية ، والتى تستقدم عظماء الأساتذة من جامعات أوربا ، وتحاول الأخذ بأحدث الأساليب فى التفكير والتدريس .. هذه الجامعة تعاصر " كتاب سيدنا " ، والمسافة بينهما تبلغ مئات السنين وعشرات الأجيال ، ولكنهما يعيشان معا فى جيل واحد فى مصر فى بلد الأعاجيب !

وهذه رابعة ..

وهناك خامسة وسادسة وسابعة من هذه المفارقات التى لا تنتهى ، والتى تجعل من هذا الجيل أعجوبة بين الأجيال ، وتجعل مهمة المصلح الاجتماعى أشق ما عرف فى التاريخ .

وفى هذه الفترة تولد " وزارة الشئون الاجتماعية " فتضطلع بأعباء القرون ، وكان من حقها على الدولة أن تمنح من السلطات وأن تمنح من المال ما يكافئ هذه الأعباء كلها ولكنها لا تزال تجاهد لإنشاء " المراكز الاجتماعية " فتحول الظروف ، وتعترض الميزانية وتصدمها عقبات الحروب !

هذه الحالة العجيبة ثمرة أخطاء الماضى الطويل ، وثمرة عوامل كثيرة من المتعب استقصاؤها ، ولكن عاملين أساسيين فى نظرى هما المسئولان أولا عن هذا المصير الذى انتهينا اليه ، هذان العاملان هما :

أولا — أن الحكومة فى الأحقاب الطويلة الماضية لم تكن تحكم للشعب بل للطبقة الحاكمة .

ثانيا — أننا فى الخمسين سنة الأخيرة لم نختر طريق التطور الطبيعى بل اخترنا طريق الطفرة المنفرجة الخطوات على غير أساس موضوع أو نظام مقصود .

ولقد كان من أثر العامل الأول أن اتجه الاهتمام لإرضاء مطالب الحكام ومن يلوذون بهم ؛ ولما كان هؤلاء وهؤلاء يعيشون فى المدينة ولا يعيشون فى القرية وفى أحياء خاصة من المدينة، فقد توجه الاهتمام كله للمدن أو لهذه الأحياء الخاصة فى المدن، ومن هنا نشأت هذه الفوارق السحيقة بين الريف والحضر، وبين بعض الأحياء وبعضها فى المدينة الواحدة. هذه الفوارق التى لا نظير لها فى البلاد المتمدينة .

فالريف الانجليزى مثلا أو الريف الفرنسى — ولا نذكر الريف الاسوجى ولا النرويجى ولا الدانماركى — لا ينقص عن المدن والعواصم هناك إلا ما هو فى غنية عنه من ضجيج المصانع وعجيج الحركة، وملاهى البذخ والترف. أما المرافق الأصلية للحياة كالماء النقى والنور الكهربائى والسينما والمسرح المحليين والصحيفة الإقليمية والمكتبة القروية والمتنزه البلدى وقاعة لاجتماعات الريفية ... فكل أولئك متوافر ... ذلك أن الريف هناك منتجع الاستجمام ومقصد طلاب الهدوء من المفكرين والساسة المتعبين . وذلك أن الريف هناك هو الوطن الذى بعث بحكامه إلى المدينة فلم ينسوه ولم يغبنوه .

وقد كان الأثر الثانى لحكومة الحاكمين، أن هؤلاء ومن يلوذون بهم من الأتباع - قوم مترفون لا تنقصهم الضروريات، ولا تشغل أذهانهم المطالب الأولية للحياه، فانصرف همهم إلى استكمال وسائل الترف ومظاهر المتعة ، ومن عادة الأذهان المترفة أن تعنى بالمظاهر والأشكال وأن تؤثرها على القواعد والأصول . ومن هنا اتجهت أذهانهم إلى تجميل العواصم وإكسابها مظاهر التأنق والزينة ، وعنيتهم من العواصم أحياء خاصة ومرافق خاصة - قبل أن تتجه أذهانهم إلى توفير وسائل الرقى الأساسيه لهذه المدن ولجميع البلاد ، وإلى توفير التناسق والانسجام بين وسائل التعمير ووسائل التجميل .

وفى الوقت الذى كانت دار الأوبرا تشيد وتزين ، ويؤتى لها بكبار الموسيقيين والممثلين كان الشعب يجلد لتجمع منه الضرائب، ويفتقر لأنه يحتمل فوق طاقته، وكانت نسبة التعليم فى البلاد اقل من واحد فى المائة .

وأخشى أن أقول : إن هذه العقلية قد عشت بيننا طويلا وعمرت أكثر مما ينبغى فلازلت أذكر أن عدة مئات الألوف من الجنيهات كانت مطلوبة منذ خمس عشرة سنة لتأجير " بيوت هاوس " فى انجلترا وترميمها وزخرفتها وتأثيثها لتكون مقرا للفوضية المصرية فى الوقت الذى كانت بعض أحياء القاهرة مأوى للأوبئة وأوكارا لمناسر اللصوص ، وهى فى حاجة إلى قسط ضئيل من تكاليف هذه البيوت لإصلاحها ، بل أخشى أن أقول: إننا إلى هذه الساعة لم نتخلص بعد من هذه العقلية العجيبة فى كثير من الشؤون .

ولقد كان من أثر العامل الثانى، أننا لم نفكر فى خطة مرسومة لتطور المجتمع المصرى، فتركنا أنفسنا نهبا للمفاجآت، وفريسة للتقليد فى اتجاهات متعددة، ولم نشفق على أنفسنا فنؤدى ضريبة التطور دفعات صغيرة متدرجة بطيئة. ولم نطع فى هذا سنة الحياة التى تجعل المجتمع جسما حيا يحتاج فى تطوره إلى الزمن.

رأينا المرأة الأوربية تسفر وتتزين وتجالس الرجال وتراقص وتخاصر وتدخن وتشرب الخمور وتنظم الحفلات..... فلم نقل لأنفسنا: فى كم جيل تطورت المرأة لأوربية حتى وصلت إلى هذه المرحلة الأخيرة؟ وكم من التجارب اجتازت فى رحلتها الطويلة حتى غدت إلى ما هى فيه؟ لم نقل لأنفسنا هذا. بل اندفعت المرأة عندنا تسفر وتتزين وتحضر الدروس مع الفتى، ثم اندفعت تدخن وتنظم الحفلات وتراقص وتخاصر، وتقطع — وهى تلهث من الركض — ألف سنة فى خمسين سنة، فكان لا بد لها إذن أن تعثر فى ركضها عثرات قاتلة. وألا تنسجم ظواهر حياتها مع بواطن وراثاتها النفسية، وأن يسفر وجهها وتبقى روحها فى خدور "الحريم" لأن الزمن الذى ينضج المشاعر، ويسوى الأحاسيس لم يشترك فى انتقال المرأة المصرية من حال إلى حال.

ومن هنا كانت الفتاة التى تدفع حياتها ثمنا لنظرة على الطريق، والفتاة التى تراقص شابا وهما مخمورات أمام الوالد والزوج، يظلهما جيل واحد، وتفرقهما بضعة أميال من المكان وبضع ساعات من الزمان!

ولم تكن المرأة المصرية هى التى اندفعت وحدها هذا الاندفاع، فقد اندفع معها المجتمع المصرى كله فى كل مظاهر الحياة، وفى كل مرافق التمدين، وفى كل مكونات الحضارة ولو كان هذا الاندفاع متناسقا منسجما فى كل ناحية من هذه النواحى لا تقينا بعض هذا الدوار الذى نستشعره لشدة ما ركضنا وفرط ما طفرنا، ولكننا كنا نندفع بقوى غير منظمة وطاقات غير متناسبة فلا يصيبنا ضرر الطفرة وحده، بل نجمع إليه ضرر الفوضى فى هذه الطفرة وعدم الانسجام.

فقد طفرنا مثلا طفرة واسعة جدا فى مواد الدستور وقوانين الانتخاب والحقوق البرلمانية وربما كانت هذه الطفرة مطلوبة نافعة كالجرعة القوية المنبهة لجسم طال به الخمول؛ ولكنا لم نعدل جميع النظم والقوانين لتأخذ هى الأخرى بأحدث النظريات كما أخذ الدستور، ولم ننتبه إلا أخيرا هذه المفارقات حينما ألفنا اللجان لوضع القوانين الجنائية والمدنية. ثم أخيرا جدا لوضع القانون المالى فى هذا العام.

وقد تكون هذه أقل المفارقات، فهناك أمثلة كثيرة فى كل ناحية من نواحى الحياة، علتها أننا لم نضع لأنفسنا منهاجا فى تطورنا ولم نشرع لنهضتنا خطة مرسومة.

وبعد فقد آن لنا أن نتدارك هذه الحال، وأن ننقذ الأجيال القادمة إذا عجزنا عن إنقاذ هذا الجيل ، وليكن قربانا على مذبح التطور الرهيب !

والآن وقد انقضى عهد حكومة الحكام ، وأصبحت الحكومة للشعب ومن الشعب فقدزال أهم العاملين الأساسيين، ولم يبق إلا أن نقوى معنى هذا التبدل فى نفوس الحاكمين والمحكومين على السواء ، وأن تقلل من امتيازات الموظفين على أصحاب المصالح ، وأن نلغى من قاموس الدواوين اصطلاح "هيبة الوظيفة" .

ويجب أن نأخذ من المدينة للقرية ، فقد شبعت المدينة وسمنت وجاعت القرية وهزلت ،وسكان القرية آدميون والله . . . ! فيجب أن يشربوا الماء النقى على أقل تقدير وأن يجدوا مرافق الحياة الأولية اللائقة بالإنسان ، قبل أن تستزيد المدينة من وسائل الزينة ومطالب الرفاهية .

ويجب أن نأخذ من الأحياء الأفرنجية للأحياء الوطنية ، فقد عاشت الأولى أعواما فى لندن وباريس ، بينما عاشت الثانية وما زالت تعيش فى كهوف الحبشة ومغاور الزنوج وسكان هذه الأحياء أستطيع التأكيد بأنهم آدميون لهم حق استنشاق الهواء الطلق النقى فى شارع متسع ومتنزه بسيط وطرقات نظيفة وبيوت فيها الماء والنور .

ويجب أن نأخذ من الكماليات للضروريات ، فالجوع والعرى والمرض والجهل أولى بالقرش من التماثيل وحفلات الشاى ومآدب العشاء ومواكب الزينة وزخرفة الدور .

فأما العامل الثانى فذلك ميدان العمل الفسيح لوزارة الشؤون الاجتماعية ولكنها لن تنهض به وحدها ،ولن تنهض به حتى تؤازرها الدولة كلها ، والمفكرون الاجتماعيون جميعا .

فيجب أن نقف لحظة من هذا الركض السريع الذى طوينا به عشرات الأجيال فى جيل واحد ، يجب أن نقف لحظة انرى آثار العثرات التى أعثرنا إياها القفز والوثب على غير هدى ، وأن نضع لأنفسنا برنامجا اجتماعيا للتطور ، وغرضا مقصودا للتقدم ، وأن ننسق خطواتنا فى كل اتجاه ، فلا نكون كالجهاز المختل يتحرك كل جزء فيه على هواه .

ويجب أن نلحظ فى هذا البرنامج أن للزمن قيمته ، وأن الشعور الإنسانى وحدة متصلة الحلقات ، وأننا لا نستطيع التخلص من كل مارسخ فى أعماقنا من أثر التقاليد القديمة والحياة الطويلة بمثل هذه السرعة والسهولة ولو غيرنا مظاهرنا جميعا .

أجل يجب أن يأخذ الحاضر من الماضى ، وأن يعتمد المستقبل على الحاضر ، وأن نخطو بحذر ، ونتقدم برفق "فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" كما يقول نبى الإسلام الكريم .